قراءة في رسالة «أوباما» للعالم الإسلامي (أخيرة)

ما المقصود بالحديث عن التسامح وحقوق المرأة؟

تناولنا في حلقتين سابقتين بعضاً من أفكار الرئيس الأمريكي «أوباما» التي طرحها في رسالته للعالم الإسلامي يوم الرابع من يونيو من جامعة القاهرة، وقد تحدث عن علاقته وأمريكا بالإسلام، وعن إمكانات العمل المشترك، وحاول الزج بالإسلام في مواجهة مع بعض أبنائه لصالح أمن أمريكا، وبرر احتلال أفغانستان فيما اعترف بخطأ غزو العراق.

أحمد عز الدين
aezed8@hotmail.com

وفي مواجهة صادمة للعرب والمسلمين الذين يسعى لخطب ودهم أكد «أوباما» على متانة الأواصر بين أمريكا و«إسرائيل»، واعتبر أن رغبة اليهود في وطن خاص لهم هي رغبة متأصلة ينبغي تحقيقها ولو على حساب أصحاب الأرض الفلسطينية! وتكلم عن دولتين لشعبين، داعياً الفلسطينيين و«حماس» خاصة إلى التخلي عن المقاومة، والدول العربية إلى مساعدة الشعب الفلسطيني على الاعتراف بالاحتلال!!

وقال «أوباما» إنه يؤمن بنظام الحكم الذي يسمع صوت الشعب ويحترم القانون، لكنه لم يفسر كيف يتفق هذا الزعم مع دعمه لنظم استبدادية حليفة لواشنطن.

ونختتم اليوم قراءتنا في رسالة «أوباما».

الحرية الدينية والتسامح

تحدث «أوباما» عن التسامح باعتباره «تقليداً عريقاً يفخر به الإسلام»، شاهده عندما كان طفلاً في إندونيسيا؛ إذ كان المسيحيون هناك يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، وهو ينطلق من ذلك إلى الدعوة لأن تتمتع الشعوب في جميع البلدان بحرية اختيار العقيدة، وأسلوب الحياة القائم على ما تمليه عليهم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم، بغض النظر عن العقيدة التي يختارونها لأنفسهم؛ لأن روح التسامح هذه ضرورية لازدهار الدين! وينكر «أوباما» «أن ثمة توجهاً في بعض أماكن العالم الإسلامي ينزع إلى تحديد قوة عقيدة الشخص وفقاً لموقفه الرافض لعقيدة الآخر، إن التعددية الدينية هي ثروة يجب الحفاظ عليها ويجب أن يشمل ذلك «الموارنة» في لبنان أو «الأقباط» في مصر».

ومن المعروف أن مصطلح التسامح يحمل أوجهاً عدة، ويختلف في معناه الإسلامي عن المعنى الشائع في الغرب؛ وقد رغب الإسلام في التسامح في المعاملة لغير المسلم، ودعا لمعاملة اليهودي أو النصراني بالعدل والإنصاف، والمجاملة في العشرة وإحسان الجيرة، شرط ألا يكون محارباً، كما نجح الإسلام في إذابة فروق العرق واللون في المجتمع الإسلامي.

لكن التسامح لا يكون في العقيدة؛ فرغم المعاملة الحسنة يجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن غير المسلمين على باطل ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٨٥﴾(آل عمران)، وينبغي عدم إقرار غير المسلمين على كفرهم، وعدم الرضا به، وهذا من التمسك بالدين لا من التعصب، والتفريط فيه ليس تسامحاً، بل تنازل عن حدود الله عز وجل.. فالتسامح لا يعني المداهنة، وإعطاء الدنية في الدين، وإباحة حمى المجتمع لدعاة الجهر بالسوء من القول باسم الحرية الدينية والتعددية الثقافية.

لقد شاع مصطلح «التسامح» في أوروبا بعد الصراع الديني الدموي بين الكاثوليك والبروتستانت، فجاءت الدعوة للتسامح هناك لإنقاذ المجتمع من الصراع، والتخلص من سطوة رجال الدين، والسماح بنشر اللادينية، وتقبل التعددية مهما كانت، فهو يعني فصل الدين عن الدولة، كما يعني العلمانية التي وُجدت لحل مشكلة النصرانية، بينما لم تكن المشكلة ذاتها موجودة عندنا، ومع ذلك فإن «أوباما» يتحدث عن حقوق الأقباط في مصر والموارنة في لبنان وكأنهم يعانون الاضطهاد، علماً بأن الأقباط يحصلون في الواقع على حقوق تفوق حقوق الأغلبية المسلمة، ودعك من السلطة السياسية «المختطفة علمانياً» منذ ما يقرب من قرن، كما أن الموارنة في لبنان لهم الحصة الأكبر في الحكم باعتبارهم الطائفة الأكبر حسب إحصاء ما قبل الاستقلال ولم تتغير هذه الحصة رغم تغير الواقع الديموجرافي.

إن الغرب الذي يطلب منا التسامح لم يقض على النزعة العنصرية في مجتمعه، وكثيرون من أبنائه يبطنون التمييز، ويظهرونه كلّما سنحت الفرصة، ونحن نرى وسائل الإعلام في الغرب لا تكف عن تشويه الإسلام؛ وما حملة الإساءة للنبي ﷺ منا ببعيد، كما لم ينسب الإرهاب والعنف والتطرف في غالب أقوالهم لأي عقيدة

«سوابق» تجربة المرأة الغربية وبعض التجارب التي جرت في بلاد إسلامية هي السبب وراء حالة الشك في كل حديث عن «تمكين المرأة» وتحريرها الذي يعني في النهاية تحويلها إلى سلعة تباع وتشترى

التسامح وفق ما يريده الغرب وأتباعه: أن يتساهل المسلمون في الطرح العقدي والتشريعي في علاقاتهم مع العقائد الأخرى وعدم الجهر بعقيدتهم التوحيدية في وجه العقائد الشركية أو المنحرفة ولا حتى ليحموا أبناءهم من زيغ تلك العقائد



أو ملة سوى الإسلام.

إذاً فالتسامح - وفق ما يريده الغرب وأتباعه - أن يتساهل المسلمون في الطرح العقدي والتشريعي في علاقاتهم مع العقائد الأخرى، وعدم إظهار عقيدتهم التوحيدية في وجه العقائد الشركية أو المنحرفة؛ ولا حتى ليحموا أبناءهم من زيغ تلك العقائد، وأن ينحّي المسلمون عقيدتهم وشريعتهم جانباً، ويبعدوهما في تعاملاتهم مع غير المسلمين حتى لو كان الطرف الآخر يتعامل من منطلق عقيدته؛ دينية كانت أم دنيوية.

أما دعوى التعددية فهي تخفي دعوةً لفرض ثقافات الغرب وقيمه وتوجهاته، وهي تسوي بين العقائد، فلا يصبح هناك حق وباطل، بل الكل سواء طالما دخل في سياق (التعددية)، فليس لأحد منها حق في القول بأنه دين الحق. (نقل بتصرف عن الشيخ ابن عثيمين يرحمه الله، وسليمان بن صالح الخراشي، ود. أحمد القاضي يرحمه الله، ود.محمد يحيى).

والمحصلة هي علمنة الإسلام، أي نزع القداسة والمنزلة الإلهية عنه، وتحويله إلى نحلة بشرية تضاف إلى النِّحَل البشرية الموضوعة، ولا تختلف دعوة «أوباما» للتسامح عن ذلك.

حقوق المرأة

لا نختلف مع «أوباما» بخصوص الأفكار التي عبر عنها بشأن المرأة وتعليمها، ونقدر دفاعه عن الحجاب بقوله: «أرفض الرأي الذي يعبر عنه البعض في الغرب، ويعتبر المرأة التي تختار غطاء لشعرها أقل شأناً من غيرها، ولكنني أعتقد أن المرأة التي تحرم من التعليم تحرم كذلك من المساواة».

وكذلك قوله: إنه يحترم كل امرأة تختار ممارسة دور تقليدي في حياتها بشرط أن تختاره بنفسها، ولكن هل «برامج محو الأمية للفتيات ومساعدتهن على السعي في سبيل العمل» هي برامج بريئة لا تخفي نوايا لتغيير طبيعة المرأة وعقائدها وأفكارها، ودفعها على طريق التحرر من الشرع والخلق ليكون حالها كحال معظم النساء في الغرب؟ إن «سوابق» تجربة المرأة الغربية وبعض التجارب التي جرت في بلاد إسلامية هي السبب وراء حالة الشك في كل حديث عن «تمكين المرأة» وتحريرها الذي يعني في النهاية تحويلها إلى سلعة تباع وتشترى.

التنمية الاقتصادية وتنمية الفرص

كما نتفق مع «أوباما» في حديثه عن التناقضات في مظاهر العولمة، وكيف أن التجارة مثلما تأتي بثروات وفرص جديدة فإنها تتسبب في اختلالات وتغييرات كبيرة في المجتمعات، وقد أشار «أوباما» إلى الخوف الذي يسود المجتمعات بما في ذلك المجتمع الأمريكي «من أن تؤدي الحداثة إلى فقدان السيطرة على خياراتنا الاقتصادية وسياساتنا والأهم من ذلك على هوياتنا وهي الأشياء التي نعتز بها في مجتمعاتنا وفي أسرنا وفي تقاليدنا وفي عقيدتنا».

كما نؤيد قول «أوباما»: إن «التناقض بين التطور والتقاليد ليس أمراً ضرورياً.. وينطبق ذلك على التقدم الباهر الذي شاهده العالم الإسلامي».

وقد أطلق «أوباما» العديد من الوعود في هذا المجال من قبيل التوسع في برامج التبادل، ورفع عدد المنح الدراسية لأمريكا، وتشجيع الأمريكيين على الدراسة في المجتمعات الإسلامية، وتوفير فرص للتدريب في أمريكا للطلاب المسلمين الواعدين، واستحداث هيئة جديدة من رجال الأعمال المتطوعين لتكوين شراكة مع نظرائهم في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان (لاحظ أنه لم يستخدم كلمة البلدان الإسلامية)، وغيرها من المشاريع، لكن التجارب السابقة تقول: إن ذلك يصب في خانة خلق طابور خامس داخل المجتمع يكون ولاؤه لأمريكا وهواه معها.. وعلى «أوباما» أن يثبت العكس.

ومن المؤكد أن «أوباما» يعلم أنه من الصعب تصديق أقواله لتعارضها مع الكثير من أفعال إدارته، ومع الإرث الثقيل الموروث من الإدارات السابقة والتي لم يعلن «أوباما» براءته منها .

وفي شأن القضية الفلسطينية مثلاً لم يطالب «أوباما» «إسرائيل» بتفكيك الجدار العازل، ولم يلوح بالعقوبة إذا لم توقف الاستيطان، ولم يفعل شيئاً لرفع حصار غزة أو خفض معاناتها، فضلاً عن محاكمة مجرمي الحرب المسؤولين عن مجزرتها، وبينما طالب المسلمين بألا يعيشوا في الماضي، تذكر المحرقة اليهودية.

أما بشأن الحريات، فقد كانت رسالة «أوباما» خليطاً من المبادئ والبراجماتية: سنطالب بالحرية ونتحالف مع الاستبداد.. سنعتقل المشتبه بهم ولكن لن نعذبهم! صحيح أن خطاب «أوباما» حوى الكثير من المبادئ، لكنه رجل سياسة قبل أن يكون واعظاً.

نجح «أوباما» في الحديث مباشرة إلى كل مسلم ومسلمة، بأسلوب جديد لم نعهده من الساسة الأمريكيين، لكنه لم ينجح في كسب ثقة غالبيتهم ممن يرون خطابه مجرد حملة علاقات عامة لتضييع الفرص ومحاولة لتجميل صورة أمريكا.

ويخشى أن يكون «أوباما» نفسه صنيعة الجهات المتنفذة التي رأت ضرورة تغيير صورة أمريكا، بشخص وفكر جديدين بعد فشل المشروعات الإمبراطورية في فترة حكم «بوش»، في محاولة للحيلولة دون السقوط الكبير للدولة العظمى.■